

أئمة الشكر في القرآن الكريم



إنَّ المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى صرح بالثناء على صفوة خلقه أولي العزم من الرسل (ع) بأنهم كانوا من الشاكرين، فوصف نبيه نوحاً (ع) بأزّه (كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) (الإسراء/ 2). ونعت خليله إبراهيم (ع) بأنه كان: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) (النحل/ 121). وقال لكلٍّ من الكليم موسى والمصطفى محمد (ص): (وَكَُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف/ 144)، وقد كانا.

وهذا النبي الشاكر، والأواب الذاكر: سليمان بن داود (ع)، والذي حفظ القرآن له أكثر من موقف عبّر فيه عن شكره لنعم ربه، وبيّن أنّ فرحة اكتمال النعمة، وتمام الأمنية لم تُلهيه عن اللهج بالاعتراف بها لمسديها، وشكره عليها، استوقفته تلك النملة حين نذارتها لقومها: (ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَايِمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١٨) فَتَبَسَّموا مَاحِرًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (18-19). تأمل كيف لم تشغله تلك النعمة عن التوجّه إلى من أنعم عليه بها، بل حرك فيه هذا المشهد الرغبة في الشكر لمستحقه، فهو الذي علّمه ما علّمه، ويتكرر مشهد الشكر

عند هذا النبي الكريم، لما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده. فيقول: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَلَا زَمَامَ يَشْكُرُ لِنِعْمَتِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَنْصُرُ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل/ 40).

إنه حال الشاكرين، فسلیمان(ع) لم تشغله- هذه الآية العظيمة، وهي: حضور عرش بلقيس بسرعة هي أقل من طرف العين- عن شكر من أنعم عليه بذلك، بل لهج بالثناء والحمد لله تعالى. فإذا كان هذا حال أنبياء الله تعالى ورسله، فغيرهم أحوج إلى أن يكون. الحمد والشكر لله، شعاراً لهم وداراً، فإن الأمر كما قال مولانا أمير المؤمنين (ع): "النعمة موصولة بالشكر، والشكر موصول بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله سبحانه حتى ينقطع الشكر من الشاكر".

وفي مقدمة الشاكرين وإمامهم، سيد البشر محمد (ص)، وذلك لأنه أتقى الخلق، وأعرفهم بحق خالقه، وأشكرهم له. ويظهر ذلك جلياً من خلال النظر في حاله وسيرته مع أهل بيته (ع)، وأزواجه وأصحابه، وعامة من رآه أو أتاه. روي عن الإمام موسى بن جعفر (ع) عن أبيه، عن آباءه، عن الحسين بن علي (ع): -في حادثة طويلة ومفصلة- عن أمير المؤمنين (ع) في فضل رسول الله (ص): "إنه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدرة وجوفه أزيز كأزيز المرجل على الأثافي من شدة البكاء، وقد أمنه الله عز وجل من عقابه، فأراد أن يتخشع لربه ببكائه، ويكون إماماً لمن اقتدى به، وقد قام (ص) عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفر وجهه، يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عز وجل: (مَا أُنْزِلَ لِنَدَا عِلَاقِكَ الْقُرْآنَ لِنَتَشَقَّى) (طه/ 2). بل لتسعد به، ولقد كان يبكي حتى يغشى عليه، ف قيل له: يا رسول الله أليس الله عز وجل قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: بلى أفلا أكون عبداً شكوراً".

لوكل جارية مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حسن لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحساس والمنن

أما الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فإنهم هم الذين سيشكرون من ربهم في الآخرة بالأجر الذي سيطلون أبداً يحمده من أجله. عندما يقول لهم سبحانه بعد أن يستقرروا في نعيمهم: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً) (الإنسان/ 22). ويستأنف الشكر لهم من الله بسخاء عطاءه جل شأنه: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الذَّنْوَ الْخِزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) (فاطر/ 34-35).

المصدر: كتاب المبصرون